المبحث السابع

الصدق مع الله

الصـــدق مـــع الله

القلوب النقيَّة وجدناها في قلوب الأنصار لإخوانهم المهاجرين، فهم ضايفوهم وزوجوهم منهم، والله ﷻ عندما يثني على مجموعة من الناس يمدحهم ويمجدهم، يجب عليك أن تتصفح أحوالهم، وأخلاق الأنصار في القرآن الكريم، نجد أن عندهم سمة أساسية، وهي سمة النقاء، قلوب ليس فيها خدش، قال عنهم الملك تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر:٩].

أي: صار الإيمان سمة لهم، وهي دار الهجرة والنبوة وحجرات الحبيب عليه الصلاة والسلام، عليك أن تحب أخاك في الله ﷻ، هذا شيء جميل، ولكن هناك مرتبة أعلى من ذلك، وهي أن تحب الخير لأخيك أكثر من نفسك، تقول: ربما أكون جائعًا، ولكن غيري أكثر جوعًا.

في معركة اليرموك ضربوا أعظم صورة في الإيثار كما ذكر الطبري، معظم الأنصار خرجوا في الموقعة، وأبناء الفاروق عمر ﷺ واستشهد كثير من صحابة النبي ﷺ ستة عشر من الصحابة جرحى وعطشى، وكلما تقدم الماء لأحد يشرب يقول: أخي أحوج مني، وظل الماء يدور عليهم جميعًا، وكان الماء قليلاً حتى عاد الماء إلى الأول، والكل يرفض أن يشرب قبل أخيه، فقال الملك: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر:٩].

فهو محتاج، ولكنه يرى مع يقينه مع ربه أن غيره أحوج فعاد إلى الأول؛ ليشرب فوجدوه شهيدًا، وهكذا فهم ينتظرون شرابًا أفضل يجرى في أنهار الآخرة وليس الدنيا، وكان لسان حالهم: وسقاهم ربهم شرابًا طهورًا، كما في قوله تعالى: ﴿ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان:٢١].

أي: يعلوهم ويجمل أبدانهم ثياب بطائنها من الحرير الرقيق الأخضر، وظاهرها من الحرير الغليظ، ويُحَلَّون من الحليِّ بأساور من الفضة، وسقاهم ربهم فوق ذلك النعيم شرابًا لا رجس فيه ولا دنس .

هل رأيت أنه مات وهو عطشان؟ ولكنه مُتِّع في الآخرة، فلما وجد هذه العظمة: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢٠]، ليس أي ملك الذي ملك ووهب وقسم؟ إنه مالك الملك، لمن الملك اليوم؟ عندما أقدم غيري على نفسي فأنا مؤمن.

أما عندما آخذ الذي ليس من حقي، وأقول: آخذه، ومن بعدى الطوفان! فلست مؤمنًا؛ لأن تمام، وكمال، ونقاء الإيمان هو قول الحبيب ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[1] فنفى عن الناس الذين عندهم أنانية عالية، ففي قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة:١٠٦].

أي: ومن هؤلاء المتخلفين عنكم أيها المؤمنون في غزوة (تبوك) آخرون مؤخرون; ليقضي الله فيهم ما هو قاض، وهؤلاء هم الذين ندموا على ما فعلوا، وهم: مُرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أُميَّة، إما يعذبهم الله، وإما يعفو عنهم، والله عليم بمن يستحق العقوبة أو العفو، حكيم في كل أقواله وأفعاله.

لقد وصلنا إلى أن الناس الذين ذكرهم الله تعالى على قسمين في سورة التوبة .

المسلم النقي، والمنافق؛ لذلك فسورة التوبة تسمى بالكاشفة والمقشقشة والفاضحة، أي أن الشخص يأتي وعلى يقين بأنه كذاب، ويأتي عند رسول

---

(١) صحيح البخاري، كتاب: الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم الحديث: ١٢.

الله ﷺ فيلتمس الرسول ﷺ له العذر، فكثير من هذا الصنف يعيشون بيننا، ولكن إذا نظرت في قلوبهم تعلم أنه غير صادق، فيقول له الملك في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [التوبة:٧٨]

أي: ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الله يعلم ما يخفونه في أنفسهم، وما يتحدثون به في مجالسهم من الكيد والمكر، وأن الله علام الغيوب؟ فسيجازيهم على أعمالهم التي أحصاها عليهم.

فقال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة:٩٤].

أي: يعتذروا إليكم أيها المؤمنون هؤلاء المتخلفون عن جهاد المشركين بالأكاذيب عندما تعودون مِن جهادكم من غزوة (تبوك) قل لهم أيها الرسول: لا تعتذروا، لن نصدقكم فيما تقولوا، قد نبأنا الله من أمركم ما حقق لدينا كذبكم، وسيرى الله عملكم ورسوله، إن كنتم تتوبون من نفاقكم، أو تقيمون عليه، وسيُظهر للناس أعمالكم في الدنيا، ثم ترجعون بعد مماتكم إلى الذي لا تخفى عليه بواطن أموركم وظواهرها، فيخبركم بأعمالكم كلها، ويجازيكم عليها.

ويعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم، قل: لا تعتذروا، إن الله يعلم عنكم كل شيء، فالأيام تأتي وتثبت أنهم كاذبون في سورة التوبة، وقسم فيها الملك الناس إلى قسمين: قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٠٢].

أي: وآخرون من أهل (المدينة) وممن حولها، اعترفوا بذنوبهم، وندموا عليها، وتابوا منها، خلطوا العمل الصالح وهو التوبة والندم والاعتراف

بالذنب، وغير ذلك من الأعمال الصالحة بآخر سيّء، وهو التخلف عن رسول الله ﷺ وغيره من الأعمال السيئة - عسى الله أن يوفقهم للتوبة، ويقبلها منهم - إن الله غفور لعباده، رحيم بهم.

ما هي أفضل لحظة رق فيها قلبك؟ كان قلبك جامدًا فرق قلبك، واستشعرت فيها قول الملك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦].

أي: ألم يحن الوقت للذين صدَّقوا الله ورسوله، واتَّبعوا هديه، أن تلين قلوبهم عند ذكر الله وسماع القرآن، ولا يكونوا في قسوة القلوب كالذين أوتوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى الذين طال عليهم الزمان فبدَّلوا كلام الله، فقست قلوبهم، وكثير منهم خارجون عن طاعة الله؟ وفي الآية الحث على الرقة، والخشوع لله ﷻ عند سماع ما أنزله من الكتاب والحكمة، والحذر من التشبه باليهود والنصارى، في قسوة قلوبهم، وخروجهم عن طاعة الله، فعندما قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٢].

خلط مثل اللبن، لا يأتي في اللبن نقاء عندما يأتي فيه خلط، عند خلط عمل سيء بعمل سيء فأصبح العمل كله أسود مربادًا.

وهناك من يخلط عملاً صالحًا بآخر صالح، الذي يخلط عملاً صالحًا بعمل سيء كلنا نعمل ذلك وعلى هذه الحال، ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ فالقلب متقلب بين الأعمال الصالحة والأعمال السيئة.

اللهم تُب علينا، واجعلنا من الأنقياء الأتقياء ﴿.... عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٢].

فالذي جلس مع نفسه، وصارح نفسه في سبيله إلى النقاء، الذي يقول: أنا راض بحالي، "لا"، لابد وأن تكون في زيادة، وتعترف أنك مقصر، فقال الملك ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:١٠٢].

فالذي تاب عرفنا أنه تاب، والذين يرجون؛ أي: أنه يريد أن يأخذ أحدًا بيديه، ويقول له: نحن في شعبان، وأوشكنا على آخر شعبان، وسنرفع أعمال السنة كلها إلى الملك سبحانه وقيُّوم السماوات والأرض، وإن أعمالك لا ترتفع إذا كان هناك عداوة بينك وبين أخيك، اتركوه ودعوه لعله يصفح عن أخيه، وعمله يكون نقيًّا، يقول: يارب، عمراتي، وحجي، وصلاتي، وزكاتي، فيقال له: لقد لوثتها عندما عاديت أخاك.

إلهي ما أكرمك وما أعظم قدرتك، فامنحنا من بِرِّك وإحسانك ما أنت أهل له، وامنعنا واحمنا من كل سوءَ، ولا تجعل في قلوبنا سواك.

اللهم اعصمنا يا ربنا من شر الفتن، وعافنا من جميع البلايا والمحن، وأصلح منا ما ظهر وما بطن، ونق قلوبنا من الحقد والحسد، ولا تجعل لظالم سلطانا علينا، ولا تجعل للشيطان سلطانا على قلوبنا، ولا تجعل للأهواء والنفس الخبيثة سلطانا علينا، اللهم إنا نسألك بنور وجهك الذي أشرقت له السماوات والأرض، وبكل حق هو لك أن تجعل لنا من كلِّ هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، ومن كل عسر يسرا، ومن كل بلاء عافية. يا أكرم الأكرمين

اللهم أنت أحق من ذُكِر، وأحق من عُبِد، وأنصر من ابتغى، وأرأف من مَلَك، وأجود من سئل، وأوسع من

أعطى، أنت الملك لا شريك لك، والفرد لا ند لك، كل شيء هالك إلا وجهك، لـن تـطاع إلا بإذنك ولن تعصي إلا بعلمك، تطاع فتشكر، وتعصي فتغفر، أقرب شهيد، وأقرب حفيظ.

اللهم صلِّ على محمد، وعلى آله وأصحابه، وأولاده وأزواجه، وذريته وأهل بيته، وأصهاره، وأنصاره، وأشياعه ومحبيه، وأمته أجمعين يا أرحم الراحمين .

****